فى وجه الثورة على الأخلاق

للأستاذ أمين الخولى
الأستاذ بكلية الآداب

يا صاحب الرسالة

أبلغت قراءك ثورة محمود على الأخلاق فتحدث إليه الأستاذ عزام ، وسكت محمود حين امتلأ بطنه ؛ لكن كان المجلس حافلا بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب ، فكانوا كلهم لمحمود وعلى عزام ... وإنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل ... وأن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفهم الأستاذ عزام بالقناعة ، وخصهم بالرضا ، لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كصيدناوى والبدراوى وعبود (١)

فلنسأل الثائرين عن هذا ثم ننتقل إلى غيره : لم لا تصلح الأخلاق الفاضلة أن تكون عدة النجاح ؟ هل يتحدث الواقع الصحيح بهذا ؟ لا أظن ؛ بل أعتقد دائماً أن فشل الفاشلين لعجزهم أو ضعفهم أو نقصهم يعلل بالفضيلة والأخلاق . وإلا فهل خرج إلى ميدان واحد من الحياة رجلان تساوى فهمهما لهذه الحياة ، وتساوى تسلحهما لما يعنيان من غاية ، وكان أحدهما نبيلا ، والآخر فسيلا ، فنجح الثاني وسقط الأول ، أو نجح الثانى أكثر من نجاح الأول ، بغير فارق إلا فضيلة الأول ورذيلة الثاني ؟ لا أظن ، فلو كانا فى عمل حر ولهما هذا التساوى التام لأكد الواقع أن أي مجتمع مهما اشتد فساده سيجد في فضيلة الأول نوعاً من الدقة والثبات ، وسبباً للطمأنينة إليه ، ويدفعه كل أولئك إلى الإعجاب به وإيثار معاملته ؛ بل لا أشك فى أن الثانى السافل لن ينجح إلا إذا اصطنع هذه الفضيلة وحقق آثارها بل ادعاها فى غير مناسبة كما هو شأن أعداء الفضيلة دائماً . ولو تخلفت هذه النتيجة فنجح النذل أو زاد نجاحه لغير فارق آخر بين الرجلين فما أظن هذا يكون إلا عن نسبة من الندرة تؤكد القاعدة ولا تهدمها ؛ وأنا كفيل بأن تجد دائماً فى مثل هذه الحالة فارقاً فى الكفاية والاستعداد واليقظة وما إلى ذلك

وإن ذهب وهم القارئ - كما ذهب وهم أصحاب هذه الثورة - إلى أن النذل سيصطنع بعد الكفاية والاستعداد أساليب منحطة لايلوى عليها النبيل ، فقد فاته أن يقظة النبيل تقضى عليه باحتياط نبيل لهذه الأساليب ، وعمل على كشفها وفضحها ، وإلا كان ناقص الاستعداد محدود الفهم لواقع الحياة ونذالة الأنذال ، وعاد النقص على استعداده ولم يكن الذنب لفضيلته

هذا حين يتحد الميدانان ؛ لكن الثائرين سيقولون إن الميادين متعددة وسبيلها إلى الوصول مختلفة ، وسيتخير النذل أقصرها وأسرعها فيصل فى غير مشقة ، على حين يكد الفاضل فيصل متأخراً ولا يصل إلا لبعض الشيء . فهب أحدهما اتجر فى الغلال أو الأقطان لأنه فاضل ، واتجر الثانى فى المخدرات أو الرقيق الأبيض لأنه لا يبالى ؛ حسن ، سيربح الأول ربحاً يسيراً ثابتاً غير مهدد بالتضحية من أجل حمايته أو الوصول إليه لأنه أكشف الوجه واضح الطريق ، ربحاً غير مهدد بالمطاردة ، غير مهدد بالمخاطرة ، غير مهدد بالمرض وقصف العمر سريعاً ؛ وسيربح الثانى ربحاً وافراً سريعاً يبذل غير القليل منه لحمايته أو الوصول إليه ، ربحاً مهدداً بالخطر ، مهدداً بقصر العمر إثر الجهد والاحتيال والمجازفة ، بل مهدداً بالموت السريع ، والفضيحة العاجلة ... إلى آخر مالا أزعج القارئ به من آفات تكفي أيسر نظرة متأنية لتبينها وتشهد بأن لذة زوجة شريفة من زوجية غير سعيدة أكثر فى مجموعها وأقوى فى جملتها من لذة مومس هائلة ، لا تزيد حياتها فى ذلك على بضع سنوات حين تطول حياة الزوجة عقوداً بعد تلك السنين . والعملية الحسابية المادية تحدث نتيجتها دائماً لو أحسن حساب اللذائذ والآلام ، والخاسر والمكاسب بأن الفضيلة قد اختيرت لعائدتها فوق ما فيها من النبل ، وأن ليس الفشل لسبب خلق بل لغيره دائماً

وهنالك الوظائف والدواوين لجريان الأمر فيها على الهوى واضطراب السياسة قد تظهر ميداناً غير خاضع لهذه القاعدة ، ميداناً قد ترتفع فيه نسبة الشذوذ والتخلف ، لكن حتى هذا الميدان تنتهى فيه النظرة المتأنية إلى تلك النتيجة نفسها ، فلو دخله موظفان قد تساويا فى كل شيء ، واختلفا فى الخلقية لم يهن أن ينجح النذل لنذالته لا غير إلا حين يسلك طرائق يأباها الشريف فيتقدم هذا كلما اضطرب الميزان وضعف الرئيس ، لكنه تقدم غير مطرد ؛ إنه تقدم مهدد بمثل ما يهدد تاجر المخدرات أو قريباً

(١) من عبارة الأستاذ الزيات فى العدد ٢٣١ من الرسالة بتصرف اقتضاه إدماج العبارة لا غير

منه طفرة سريعة ونكسة غير بطيئة ؛ ولا أقل من ألم الخوف والفزع بعدم ثبات الحالة ، وتغير السيد ، والرأس الناكسة ، والعجز عن دعوى الفضيلة والكرامة التي يحرص مثل هؤلاء على ادعائها . آلام تنتهي بها العملية الحسابية إلى قريب من نتيجتها المطردة ؛ وفي الجانب الثاني لذائذ لا يرضى الشريف أن يدع مكانه مستبدلا بها آلام خصمه ، ولو ساومته على ذلك لرفض . هذا إذا كان كل الفرق بينهما الأخلاق ؛ أما إن وجدت شيئاً وراء ذلك كما هو الكثير الغالب ، بل الذي يقع دائماً ، من لباقة وحسن بيان ، ومعرفة بالرغبات ، ومرونة في العمل ، وطلاقة وجه ، وما إلى ذلك ، فقد عادت اللائمة على وخامة الثاني ونقصه لا على أخلاقه ، ولم تكن الأخلاق سبيلا إلى الفشل ولا عائقاً عن النجاح

وأما دعوى الثورة أن الطيبين القانعين المخصوصين بالرضا لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كفلان وفلان فدعوى يقول الأستاذ الزيات على لسان أصحابها : ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على اطلاقها فضائل ؛ كما يقول : أليس سلف الإنجليزي أبلغ في العزة ، وطمع الفرنسي أليق بالحياة ، وطموح الإيطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكي أضمن للفوز ؟

تلك هي الدعوى ؛ لكن هذا المعنى للفضائل التي عدت معنى لا تعرفه خلقية دينية ، ولا تقره خلقية فلسفية ؛ فانما التواضع أن تكون وضيع القدر فلا تتقطرس ، وليس التواضع اتضاعاً . وإنما القناعة أن تملك فلا تشره ، وليست القناعة ترك مادة الحياة وافساح الطريق لعاد أو غاصب . وإنما الزهد أن تستطيع فلا تنهم ، وليس الزهد العجز عما في الدنيا والحسرة على ما في أيدي الناس . وإنما التوكل أن تقدم واثقاً لا أن تحجم عاجزاً . وأما المداراة فما عرفناها بين الفضائل . والخلق والدين يقرران أن سلف الانجليزي قبيح أفضل منه عزة المؤمن الذي يرى العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فحسب . وطمع الفرنسي قبيح أليق منه قيام المتدين وذي الخلق بحق الحياة وواجبها . وطموح الايطالي مفتعل أصل منه تلك العزة الروحية وهذا الإباء الساعي لإعلاء كلمة الحق ، المتقدم إلى الدنيا بمهمة اجتماعية ، وعمل إنساني يرغم من أجله ويجهد في سبيله . واستقلال الأمريكي بعض مغامرة الذي يقدم واثقاً باحدى الحسنيين . وصراحة الألماني بعض شجاعة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم . وما هذا الذي يعيب الثائرون من صور التواضع المتضع ، والزهد العاجز ، والقناعة المحرومة ، والتوكل الخامل ، إلا صور لا تعرفها الأخلاق ولا يفشل أصحابها لأخلاقهم بل يفشلون لفشل أخلاقهم

وأما هذا الربا الذي جاء في عداد تلك الأخلاق فمسألة اقتصادية عملية ، لا خلقية أدبية ؛ وهي فكرة اقتصادية ، يقرن فيها النظام الاسلامي الكامل الذي قررها بالنظم الاقتصادية الأخرى ليحكم لهذا أو ذاك ، وليست تلك المسألة من أسباب الثورة على الأخلاق في شيء

* * *

ويعرض الأستاذ الزيات على لسان تلك الثورة أن يكون مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمي فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمي رذيلة . وهذا مقياس لا يأباه الدين ولا الخلق ، فالمذهب النفعي قديماً وحديثاً معروف بين مذاهب الخير ؛ ولكن ليس بهذا اليسر والسهولة التي تفهمها الثورة على الأخلاق ، وتأخذ فيه باللحة الطائرة . فما المنفعة المحكمة ؟ وما المضرة المتقاة ؟ أمنفعة الفرد أم منفعة الأسرة أو الأمة أو العالم ؟ أالمنفعة المادية الحاسية أم المنفعة المعنوية العقلية أم هما أم فرع منهما وما هو ؟ أالمنفعة العاجلة أم المنفعة الآجلة أم هذه وتلك ؟ ومتى تكون هذه ومتى تكون تلك ؟ وإذا تعارضت منفعة ومضرة فكيف يوازن بينهما وبأي شيء ؟ وإذا وجدت منفعتان في عملين فكيف يفاضل بينهما وبأي شيء ؟ وإذا وإذا ... من مضايق شائكة يسلكها الباحث ليخرج منها بمقياس للأخلاق منفعي . وقد انتهى كل أولئك الباحثين على اختلاف ما بينهم إلى أن هناك فضيلة ورذيلة ، وأحبوا هذه ، وثاروا على تلك ؛ فلن يكون تحكيم المنفعة منهياً للثورة على الأخلاق . وهأنذا قد حكمت المنفعة فيما مضى من موازنة بين نجاح تاجر الغلال وتاجر المخدرات فلم تخرج النتيجة شاهدة بفشل الأخلاق

وأخيراً يا صاحب الرسالة : اسمح لي أن أحملك رسالة إلى الثائرين . قل لهم : استعدوا للحياة بعد فهمها فهماً صحيحاً قبل أن تلقوا تبعة فشلكم على الأخلاق . ولا تحكموا على الفضائل بعمل الناس فتحكموا بفشل الأخلاق ، لأن للفضائل حقائق ثبتت على الاختبار ، وأيدتها التجربة بعد بحث لا تزال الإنسانية تمنحه قوتها وجهدها . وانظروا إلى النتائج البعيدة والقريبة للأعمال ،